محمد الميموني

صيرورات تسمي ذاتها

شعر



منشورات
وزارة الثقافة

محمد الميموني

صَيرُورات تُسمي ذاتَها

شعر

صيرورات تسمي ذاتها
الإيداع القانوني : 2007/0260
ردمــــك : 9-4091-0-9954
منشورات وزارة الثقافة 2007
سحـــب : مطبعة دار المناهل - 2007

من يرسل الألحان الآن

من هناك، من بعيد ؟

من يُدمن الغناء في الظلام

حين تشحب الأصوات وتبيد؟

من ذا الذي يخاطب الصباح

من غشاوة المساء

بلحن خالص أجش

لكنه نافذ

شجيٌّ وبهيج ؟

أيأتي هذا الصوتُ

من هوامش المدينة؟

أم من بستان ذابل مهجور ؟

أم من خراب الحائط الوهميّ

في جنين؟

أم من سخرية النعوش بالردّى

وبالزمان الفاشل المهين؟

1ـ شجرة الهواء

نون الابتداء

أصغيتُ هذا اليوم للكلمة المُشاعة
على لسان الريحِ في أزقة الكلامْ
حلقتُ من وشوشة الحروف
على حفيف اللفظ منذ نون الابتداء
إلى مهاوي القمة السفلىَ
من الملفوظ والمسطورْ
ومن رماد ما بعد الحريقْ
وما نجا من رَقٍّ وقرطاس وجريدْ
إلى السر المكنون في الصدورْ
ومن حلول الصوت في صداه
إلى حضور الاسمِ
حيث تختفي العلامة.

تخاف الكلماتُ من ضلالة التجسيم
في جسد يَجهل هويتَها
تلوذ بأمكنة مُثلى
من التأويل والتجديف
ترسم خطَّ الوهم بين النور والمشكاة
تخاف من تهافت الخلائف
على ضريح سيف امرئ القَيْسِ
وليلته الليلاء
تخاف من خمود وهج الدهشة الأولى
على وجوه الاستعارة.

مـن جذرها الهوائي ِ الفريدْ
تـَحـلُّ فـي الهواء
وتعاود الحلول
تمُـر مـن بقـاء لبقـاء
مـن همهمـات البُـكْـم
وارتباك النـاطـقين
إلى صياغـة الأسمـاء كلها
فـي رحـلة الحُـذاء والحنين
إلى ارتقـاء سـلّـم القـصيدة
صُعوداً في الهواء اللانهائي
حيث النحيبُ والنشيدُ
طـائران مـضمّران ِ
فـي صبـاح غـصن ِ
مـن شجرة الهواء .

يناير 2002

العَشْرية الكَبيسة

كثيرا ما يَضيع صوتُهُ
ولا يمتهن الكلامْ
يختار الغوْرَ الملتوي
بديلا عن رخاوة اللسان
بلا رَويَّة ولا معنى
ولا كلامْ
يضيق صدرُه ولا ينطلق لسانُه
من منبر التزييف والخُذلانْ
فيختفي
كما لو كان هاربا
مطلوبا من جحافل الأقزامْ.

يُغويه الصمتُ والخطى المهموسة
على رمال هشة هيفاء،
يصغي لما يقول الحَبُّ للنوَى
عن السبع العجاف
والعَشْرية الكبيسة.

كثيرا ما تسبقه الحروفُ
أو تستعجل الختامْ
بلا تنفس ولا سكْتٍ ولا فصالْ
تود أن تجتنب السؤالْ
وتحجبَ السرَّ عن الأغيارْ

وتمحوَ الشواهد المضيئة
على طريق موحش وحيدْ
يحُلُّ منه الأُنْسُ
حيث تختفي العلامة.
يحيط سرّهُ بكائنات لا تعيه
لعلها تُسعفه بالعبث المطلوبِ
في أسواق الابتذال.

كثيرا ما تسبقه خطاه
على طريق وارف عميق
تنعقد البأساءُ والضراءُ
في ظلاله
وفوق رأس دوْحهِ
المرفوعِ بجناحيْ كبريائه
يعقد الحلمَ رايةَ النصرِ
على ظل بطيء شاسعْ
وليل مترنح طويلْ
يرخي سدوله على سفينة عتيقة
تحمل من كل زوجين اثنينِ
وبوصلةً حصيفة.

مهنته الوحيدة
عيارُ الكلمات
وإسكانها في جسد القصيدة
وصقلُها
حتى يشِفَّ الضوءَ من نسيجها الدقيق
وسَلكُها في خيط متناسل عتيق

يسري من تحت ليلِ متوهج السماء
من قبْل هوميروسَ والمعري وطاغور
وفوق قوس بحر متبدّلِ الأبعاد
من قبْل كل شكل وحدَقة وصورة.

وما حسيسُ البحرِ
وهمهمة الرمالْ
سوى انبعاث الضوءِ
من كلمة مصهورة.

تَبرز الكلماتُ من رغبتها المحمومة
وربما تأتي عليها شهوةُ الكلامْ،
وذات يوم تنتفي اللغاتُ
بأوطانها المعهودة
يكون ذاك حين تستعيد الريحُ صوتَها
وتملأ الزهورُ منها كأسَها
على حدود لحظة انكشافِ
ما تحجبه الأصوات
من الرحيق الآخر المصبوب في الصباحْ
من قمة فضيةِ
تختار لإثبات الحلْم
نقطةَ ارتكاز
على عمود زئبقيٍّ
نصفه مغمور في الأعماقْ
ونصفه عصيٌّ
وخفيٌّ عن لطائف الحروف
وكثافة الشفاه.

نوفمبر 2002

لعبة الخفاء والتجلي

1 ـ شحوب

تمضي السحابة إلى سبيلها

مفتتح النهارْ

تجر في أذيالها

ظلا يخشاه البحرُ

وتهابه الجبالْ

تمتص من الزرقة الرحيق

ومن ألوان الحجر البريقْ

وتفتح الفضاء والأضواءَ

لشوارد الطيرِ

التي تمْرق من بين سَدى ولُحمة السحابة

على جناح لعبة الخفاء والظهور.

يَشْحب لونُ البحرِ

حتى حافة البياضْ

وتبْهتُ الجبالُ حدَّ حالة الرمادْ

تستيقظ البحورُ كلها

ـ بحرُ الحجارة والماء والأشجار ـ

على حدود الظلِّ

واستفاضة الضياءْ :

أيتها السحابة البعيدة

اذكُرينا في سمائكِ العليا

وانتظرينا
في مفرق الفصول
حيث نلتقي
على تلاشي الخط
بين الماء والتراب والسماء.

2ـ أيها الماء

هناك كنتَ
قبل كل قمة أو غَورْ
وقبل كل بلل مغمورْ
وقبل كل ظل أو حَرورْ
وقبل كل غوصٍ
أو تحليق أو مسيرْ.

هناك كنتَ
في قلب الأشياء والأحياء
بلا نِد شبيه أو مثيلْ
تربط ما بين الحبْل السُّريّ والمصيرْ
تمشي بكل نهر ومستنقع وغابة
إلى دوارة تراها أنت من بعيدْ
على كل الآفاقِ
وتعْمى عنها العيونْ ،

من جهة الفجر أتيتَ
قبل أيّ صبح أو مساءْ
مِن رَحِم الخصب نزلتَ

حين كان الجسد
هلاما في ظلام
وغمرةَ أخلاط
وخثارةَ عناصر
وكان البحر حمأةً
وريحا مشتعلة شعواء
تبحث عن آذان وألسنة
مجبولةٍ على ابتداع الاسم للأشياء
ونصبه تمثالا
في مساء يوم فائتْ.

3ـ ضوء مفاجئ

يمتد هذا الفجرُ
في مسافة السماء
ويفتح الوقتَ على نوافذ النهار
ويبدأ النسيانُ في تذكر الملامح
يستعرض الطريق والظلالَ والقوافل
ويملأ الزوايا في متاهة الفراغ.

تهوي الدُّمى
وتُفرز العناكبُ الزمان
وليس في امتداد الفجر
خطٌ من خريطة العناكبْ
ولا من هذا الجسد
المنذور للغيابْ.

تنبتُ من أوراقها
شجيرةُ الهواء
وتملأ المكان
بالطيور والأرواح

البرزخ المخيفُ
كان لحظةَ ارتقاء
أخفَّ وطأة من الملامح اللوامة
وهذا الشيء الطائر الشفاف
جسدا كان يوما
ومحمومَ الرغبات
منقادا في محصاة أو قتاد،
وهو الآن طفل متوقد الخيال
يخترق الحدود والموانع
ويُلغي الظلَّ
بالضوء المفاجئ.

بخار النَّفَس المُلغى
من صفحة الصباح
وجثث الأوهام وأجنحة الأحلام
تضيع في همهمة الدوار المتواصل
وفي تماهي اليوم بالزمان المتلاشي.

والزهرة التي تنمو لديك في الدواخل
تُسقى من نهر دافق مغمورْ
وأنتَ لم تُفق
إلا على ضِعف مماتِ

أو على نصف حياة ،
والطائر الصدري
يتهيب الخروج
من حضرة الوجيبِ
ودوارة الشريانْ
إلى هواء سافر محجوبْ
يرى نضوب الموت
في غزارة الحياة -
ويشتهي جسما بديلا خارقا
من البريق المطْلق الشفاف
وعيناً وحدقةً صقيلة
ترى من كل أفْق
ومن كل الواجهات
بريقَ خيط في نواة النجمةِ
الثلجية البعيدة
ولونَ قطرة الندى
والطلّ والأنداءْ
وجزئياتِ الكل
والأنصافَ والأضعاف
والجوف والنتوءَ والأغوارْ
والكلماتِ البكمَ في الأعماق
وظلّ موج فوق موجِ
فوقه سحابْ
إذا مددتَ يدكَ القصيرة
تمسُّ لحمَ البحر
وعجائبَ الهوية
ولمحةَ هواء وهنيهةَ حياة .

كُنّا هُنا

كنا هنا
في الزمن الخرافي
وما نزال ها هنا
في الزمن الكسيرْ
نكتب في المابَعْدَ
والماقبلَ
من ذواتنا الجريحة
بالأصبع المغموس في السُّخامْ
كي نجعل الحياة فينا
أكثرَ حياة.

كنا هنا
من قبْل هيروشيما وجِنين
وكان غيرنا غرابا جائعاً
يحوم فوق جسد يموتْ
والموت كان خائفا
واللمعان المعدنيّ خافقاً
على نشيد قاتم حزينْ.

إلى متى
تجلد الريحُ بطنها
كي تُجهض الجَنينَ
في أحشاء أم الماء؟

إلى متى
تزحف الكلمات في أسمالها
بلا هوية ولا حُب ولا اشتهاء
ولا " متى "
أو " أين "
أو " لماذا "
ولا إشارةٍ
إلى حيث الحياةُ نبضة ملغاة
أهْونُ شأنا من وجه الضحية.

مرة أخرى
تخذل النبوءةُ العراف
وكان قد لَوى لسانَ الأمس
وتأوَّلَ النهاية
واستلهم النجمَ الذي خبا
وغاب في بئر الزمانْ.

إنسان ما
من خلف خلف حافة النسيان
يخترق الدخان ويرانا
ببصر حديدٍ
وبجسد جديدْ
يسأل :
من اختارني قرباناً
وعمّدني ضحيةً!

إنسان ما
عليه أن يستجديَ الموتَ
لكي يواصل الحياة .

وشيء ما
عليه أن يسترضيَ إلاه الانتقامِ
ويضاعف المماتْ
والموت جسْم طفل لا نهائي
يمتد بين مَقلع الأحجارِ
وفواهة البركان.

الفراغ المَحْض

لقيتُه في لامكان
وكان الوقت ساكنا
بعيدا عن تجاذب الأزمان.
سألتُه :
من أنشأ الدوائر
التي تُمسك هذا النورسَ
الذي يشيّدُ الجزيرة
من لمّع السراب حتى موّه الجناحَ
في عيون العابرينْ
فلا ترى
سوى ارتجاف طرْف عيْن الشمس في المغيبْ ؟

من أشرع الجدران للخُطّافِ
حين عاد في الربيع
ببردة من ريش وضفيرة من ريحْ
وعشٌ مغناطيسي جديدْ
يُغري إناث العطر
بغريب الشهوات ؟
من شاهد الشحرور
وهو يقطع الهواء شعبتيْن
ويشغل الفراغ المتوازي
في عالم الألوان والأصداء ؟

أجابني :
من لامستْ عيناه جسمَ هذه الأحلام
رأى التباس النورس بالنور
وموجةِ الأنغام بالشحرور
وربما رآه يكسو عش الشهوات
بما اشتهت سليلة الصباح
من عشب وأغصان وأحضان
يبنيه في الفراغ المحض بين العالمين
وليس ذاك قيظاً أو صقيعا
أو كثافة
ولا أشباحَ ليل تتخلل الأشجارْ
ولا صفيرَ ريح في أجنحة المسافة
بل لحظة انفلات
من غشاوة السراب
وهمسة ليلية
تعلو شيئا فشيئا
حتى تغمر الصباح .

وقال :
انزع الآن كل هذه الأشواك
من فمك المملوء بالثقوب
وابسط يديك نحو الماءِ
ما بالماء عطشٌ لشاربْ
ولكن الفراغ المحض بين العالميْن
يُبقي الكلام حائرا
على محيط قطرة المداد .

غشت 2003

أقصوصة

على حروف المعجم القديم
وتسلسل الأدوار
تمر الجزيئات فوق مسرح الأطياف .

مَرقتْ مثل خيط البرق
حين كانت إحدى الجُزيئات
تروي هنيهة من الحكاية
سمعتُها تحكي
على مسافة
أقل من فراغ
بين حاضر وآت :

تكسرتْ مرآةٌ
وتناسلتْ شظايا
كل شظية تفرُّ الآنَ بسماء
يحملها دوار الضوء
عبْر السنوات
من أصغر الذرات
حتى منتهى الأفلاك.

يَقيس الضوءُ عمرَه
بطول المجرّات

والبحرُ بقوافل الأمواجِ
وأفواج الغارقين،
وبالخطو المبتورِ
ورُهاب العثرات
على شفير القمة الرهيبة
أقيسُ ما أحسبه حياة .

2ـ الأشباه والأضداد

1 ـ دأبٌ

بدأب
يحوم حول وقتهِ
يهوي عليه
في خط عمودي
ومن ورائه بياض سافر
يشبُّ توّاً
في محيط وقتهِ
ويلهب الهواء والأهواء.

كما الهواء يمحو أو يُثَبّتُ
الصروح والمدائنَ الخفية
على أديم الرملِ
وخريطة المجاهلْ،
يمحو الكلامَ
عالمَ الأشباه والنظائرْ
ويأتي بأضدادها
من محض نفَس لدْنِ
ومن شهيق حارق.

كما المطارق
التي تصْدَع بالأصوات والأصداء
من طَرْقةٍ أولى
إلى تأكسدِ الشرارْ
إلى اصطكاكِ
باب الشارع الليليّ

في وجه الشتاء،
يسقط الحرفُ تائها
مطرودا من دوائر الصواب
مُدانا بالجحود
واستباحة الحرامْ .

2- سَفَر

أحدٌ ما
يرسُم الآن ظلّه
على جدار الحجرة السوداء
ويغلق الأبوابَ
ويسافرْ
وفي متاعه النوافذُ
التي تنحلّ في الدواخلْ،
يبني على أبراج الليل
العاصف الدوارْ
صروحاً
لا تسَعُها أوراقُ كل الغابة السوداءِ
وتسعها صحيفةٌ نحيلة بيضاءْ

تَستجمع السماءُ كل ضوئها
في حافة النوافذ
وتلهم الشحرورَ وتُغريه
برحلة إلى جهات
لا ظل بها ولا ضياء
إلا خلاء شاسع

وحيوان نَـزق شريد
وجسم متمردْ
يمتد مد الغابة الكبيرة .

3ـ خريف

ينزل هونا صامتا
هذا الخريف الشاحب
ينحاز للنهاية العمياء للأشياء
وينحني على أذيال الشجر العتيق.

حمامة تحط وتطير لامبالية
بقوس الضوء المائلْ :
خيطِ نحيفِ شاهدِ
على ما كاد ،فعلا ، أن يكونْ
في أفُق
من ضوء أبديٍّ لا يزولْ.

بمَهل يبني السحابُ عشه
من ماء ومن شهوة الأشجارْ
حتى إذا استوت عليه قطرة
وازّينتْ أنثاهُ برذاذ البحيرات
وحامت حولها
طيورُ غابة الأحلام،
أتته الريحَ من شتى مناطق الغبار
واصطكتْ دورة الّرحَى
بالريح

وبالصخرة الصماء
وبركام من شظايا زمن التعاقب.

4- إرادة

أريدُ ،
ها أنا خرجتُ توّاً
من دوامة الرتابة .

أتوقُ
ها أنا أذوب الآنَ
في بُحيرة الغرابة.

أحلمُ
ها أنا أرى الوجهَ
الذي يخالف الجدرانَ والحجارة
وأرجم الأضغاثَ
وهياكل الأشباح.

أحبُ
ها أنا أرى شلال الضوءِ
في كلام امرأة رفيعة .

عبــور

يمشي على حواشي البحر هوناً
لا يدوس وجه الأرضْ
وما في الجبة إلا الصباح
وما في رَحله إلا الرحيل
وشيء من هزيع الليل
وصدى المآذنْ.
تسْلس عند خطوه الأمواجْ
ويخشع الهواءُ
وتطمئن النوارسْ :
- ياسيدي البحر،
إذا أتتك في الغسقْ
أضمومة من هاجس وشوقْ
وجردت من ليلها
أشتاتا من حكاية قديمة
واستلهمتك عن صراط سالك مرسومْ
يمتد من حَصَيّة الرمل إلى أهوال المجرات
على قماش الماء وأطيافه العجيبة
واستفسرتك عن أرض مواتِ
أو مسافة فراغْ
وراء باب فظة منيعة ،
فكيف ستجيبها
بعيدا عن الصمتِ
أو الصخب المطروقْ؟

ـ من بذرة لَقاحٍ وأصابع أغصانْ
تنطلق الجهات والإشارة،
من بحر الالتباس وجُسيْمة قسطاس
تنبثق الجزيرة المأهولة
بغابة الأيدي
وبكثافة الأصابع
وبثمار اللمْسِ
وسنابل الأحلامْ
وبتراب الخلقة الموشومة .

ومن صدوع الوعي
وشقوق في الزمانْ
وذهن متعثر مغايرْ
تنبثق الأهواءَ وشجيرة المعاني.
من حرْف ومطرقة ونارْ
تُرجّح الأزلامُ تكَهُّنَها
وتُوثِق الأشياءَ بالكناية
إلى قطبيْن جاذبيْن
عبْر عمق البحر
وطفولة المنابع
صعوداً إلى الصفحة البيضاء.

يَغيب أو يغور أو يذوبْ
ولا أراه الآن في خلفية الفراغ
يشحب ريشُ طائرِ الخريف
ويبدو ضوء اللون في غيابه،
يغيب حتى قمة التلاشي

بلا جنازة ولا دموعْ
وما من أثر إلا العبورْ ،
لعله يجتاز الآن بابَه المفاجئ
ويسمع الألوانَ
ويشاهد الأبصارْ ،

لعله ينساب مثل الماء
لا يبالي بالحواجزْ
ويترك الطريق للطريقْ ،
لعله يمتد ،مثل الماء ،فوق روحه
تمام الامتدادْ
......
من يستطيع قطْع حبْل الماءْ
وأي سيف باترٍ
يَحول بين البحر والمنابع!

يناير 2003

وجْه خفِي

لهذا اليوم ،أيضا ،
سرٌّ غامضٌ مكنونْ
لعله في الظمإ المحموم
للرماد والخمودْ.

لو عاد الأمس توّاً
لن يسعَه المكانْ
ذاك الذي تحمرّ فيه النارُ
كالحديد عند نقطة الغروبْ .

لهذا اليوم وجهٌ
ليس وجهَه الأخيرْ ،
دعْهُ يطرْ طليقا
في سماحة الوجوهْ
وقد يعود مرةً
أو ربما مراتْ
على طريق لا يَرى شعابَه سواه
كما يعود الطائر الشريدُ
من سمائه البعيدة
على خطوط الضوءِ
في بوصلة المساءْ
وربما يعود متنكرا
فلا ترى منهُ
سوى عينٍ وحاجبٍ

وخط لامع سريعْ
وربما تُنكرهُ
بالظمإ المعهود للرماد والنسيان.

دع كلمات اليوم
لألحانها الفريدة
ومُرَّ زهواً تحت قوس النصر
من حدائق الخريف.

هناك ضوء خافتٌ
ينام الآنَ في ظل الجبالْ
مُرَّ خفيفا حوْلهُ
على أطراف الحُلْمِ
وكواهل الهواءْ
كي لا يفر الضوءَ
عن أصابع الأشجارْ
كما فرتْ أوراقها
من فزع الصفير في الخريفْ.

يكتسب العصفورُ لونَ هذه الأغصانْ
أو هكذا رأيتُ
حين لم أرَ الأغصانْ
وحين لاح عاريا
على ضفاف الضوء والظلالْ
رأيتُ كيف يبدع العصفورُ
نصفَ العالَم الخفي
ويلَمِّع الألوان .

ديسمبر 2002

ريح الخريف

تَفَحَّصْتَني أيها الجسدُ المتحسّرُ
هذا الصباحَ
تساءلتَ
هل هو عين الهواء الذي لفّنا
حين كان الصعودُ
إلى غوْر ذاكرة الأمسِ
مثلَ النزول إلى لمْس وجه السماءِ،
يسيراً
وكانت خيولُ الصباحِ
تفيض بأنهارها
والبساتينُ تنزل حافية للغدير.

إذا اقتربتْ منكَ
ياأيها الجسد المتحسّرُ
ريحُ الخريفِ
تلاشت عن الشفق المتمهلِ
أردية الأرجوانِ
ودوّتْ طبولُ القوافلِ
من خلف واجهة الطيفِ
وانسحبتْ،من مرايا مضمخةٍ بالتذكرِ،
أسئلةٌ ووجوهْ.

وها أنتَ تعْبر أولَ بابٍ
وآخرَ سورٍ

وفوق جبينك خطٌّ فريدٌ

هو الحد بين كيانيْن مقترنيْنِ

ترابٍ وماءٍ.

تَمدُّ الغصونُ نحيلَ أصابعها

لنوافذ عينيكَ

طيراً ورفرةً،

لا تكاد خطاطةُ ضوء الصباحِ

تحط على حَدقةٍ.

تمسكْ بها أيها الجسد المتهالكُ

قد يستطيع النهارُ المكوثَ

على الغصن ساعتَهُ

ويطيرْ.

شتمبر 2002

شُكْري...

يَغيب الآن الوجهُ المتفرد الطفولي
ويرسم الحضورَ في ملامح الوجوه
ويستريح الآن ذاك الشبح الخفيف
من حالة الدوار في دوامة الوجود.
هو الذي أتى بخيط النار من جراحه
وأوقد النهار في ليالي شهرَزاد
فباحتْ للرياح بالحكاية المحظورة .

هل كان شكري شاهدا
على انحسار الموج عن " هرقل "
في مغارة طنجيس ؟
من قبل أن ينفصل البحرانِ
وتنطلق الأشتاءُ والصيوف
هل كان مع الكاتب الفرعوني"
المفتونِ بالحروف ؟
هل كان مع الشارد المجنون
"ضون كيخوطي "
يصارع الأشباحَ ومطاحنَ الرياح ؟
هل كان شكري حاضرا
من قبل أن يستبدل القناعَ ويعود
بوجه طفل شارد غريب
وجسدٍ مجدول من التعب الرمادي

وحزنٍ غجريٍّ مترفع دفين
يجول في الأسواق بزمانه الإنساني
وبالزمان الزائف الطهراني ؟

هو الذي سمى القبيحَ قبحاً
وأشار للموصوف بأوصافه
وأفزع الوجوهَ بالمرآة
وسلخ الألوانَ عن قوس قزحٍ زائفْ .

هو الذي أتى بأبجدية الهوامش
ومعجمِ العوالم السفلَى
ومفردات التائهين
على طريق الشوك والعواصفْ .

هو الذي سخّرَ للرسائل المحكية
زمامَ قوس الريح فوق مجمع البحرين
وحمّل الأمواجَ بين رمل الضفتين
غرائبَ الأسواق والمدائن المنسية.

يطير الآن الطائر الخرافي
عن رأس سنديانة
في الريف المتجبر العنيد،
يغيب الظل عنها
ـ ليس للظل جذور ـ
وتبقى السنديانة العتيقة
في غفوة الظلال حتى يرجع العصفور.

لن يشبعَ الموتَ كما لم يشبعِ الحياة
دَعْهُ يغيب لحظة
لكي يعود حيا من رماده مرات .
....

وها أنا أراه الآن راجعا
إلى زمان طنجة الأسطوري
في صدره عصفور ودماؤه عواصف
وعيْنُه كتابةٌ ترى في كائنات السوق
ما وراء الطيف وأصدائه.

ديسمبر 2003

3 ـ مديح النيزك

مدخل السماء

1

صعدنا بصعود غرناطة

على جناح روح البَيازين

وقيل هذا مَدخل السماء

ومهبِط الظنون واليقين

ومَصرَع الشهيد

وفيوض أُم الماء

ومشهد الذي قضى

بلا جنازة ولا ضريحْ

والشاهدُ الحيّ

على الذين يحضرون في الميقاتِ

ويمضونْ

وهو الآنَ وحده الذكرى،

وهل يكون الذكرُ دون الذاكرين؟

2

مِن تقاطُع حدّ السماء وحد الرمالِ

أتَوا،

من بعيد القريبِ

أتوا،

نزلوا بسهول ممهدةٍ

لأليف المكانْ

من نواة مخصبةٍ

وشرائطَ من صبْغة الخلقِ
صاغوا عصارةَ فِعل الحضارة
حلوا بها
حيث كانوا شهوداً
على نسق وحوادثَ
كالريح والاشتعالْ

كالطيور الكبيرةِ
حطوا على قرن هذا الجبلْ
وتمدد ظلهمُ بالبياضِ
على كاهل اليومِ
واشتعلتْ في جنان الكشوفِ
جداولُ من كل ما لا يقال.

زرعوا كرمةً
وأقاموا عليها
سماءً مرصعة بالخيال
وجسورا وأشرعةً
وبحارا مشجرة بالحنين
وأقاصيص مُلغزةً بالسؤالْ

السؤال الذي يتلاقح في رحِم الماءِ
مد أنابيبه في الهواءً
وسرى في متاهة نسْغ الشجرْ
وتدرج في سلّمِ
من ترابِ
إلى شجرِ

فسحابٍ
إلى ذهبٍ في الظلال.

بالوصول أضاءوا المآذنَ
وامتلأتْ بالعنادل بيض السحب
صعدوا دُرَجَ الشوقِ
مستندين على قلم وحجَرْ
وبنوا برمادِ قليلٍ من العمرِ
جسرا وأوردةً
وتواروا وراء الكُنى والحُجُبْ
تركوا دمعهم في الزمان المجاورِ
عينا مبللةً بحنين خفيف
وارتقوا صخرةً مع سبع بناتٍ
تركنَ اللآلئَ في غصنها
والخلاخيل في سلة من حرير
وصنَعْنَ ملامح سيدة العصرِ
من فضة ونحاسٍ
وقلْنَ لِسرِّ الأنوثةِ
كنْ من تراب وماء
وسماءٍ موازية لامتداد الضياء،
ثم نادينّها باسم غرناطة.

اسألوا إن حللتم بها
شمعةً في حداد البياض
مرَقتْ فجأة من ظلام طويل
لمعتْ فوق قرْن الجبلْ
رسمتْ قمرا

واختفتْ في الهواء الفجائي
في خطوة متأنية باذخة
مثْل فعْل الأصابع
في الوّتر المستجيبِ
وظِل ِالمآذن
في الليلة المقمرة.

من مثول وئيد أمام الزمان المباشرِ
حتى الزمان المجاورِ
تغرورق العينُ من ذكر موتى
قضوا فوق جسر الرمادِ
ولم يدركوا أن قرب المسافةِ
شوط بعيدْ.

ليت كل الأرامل كنَّ
- بما حملتْ كل باقاتِهن الكثيرةْ
من أسف وحنينْ -
أمهاتٍ توبخنَ كلَّ "أبي عبد الله"
وتسْخرْنَ من دمعةٍ
أخطأتْ وقتها
واكتفتْ بالزمان المجاورِ
كي تكتوي بالزمان المباشرْ.

غرناطة خشت 2002

مَغارة حَنَّة مسعودة

(ابتسم الجبل الجليل،بعد أيام وليال ماطرة عابسة ،وأسفرت بسمته عن شلال من فضة وزبد وهّاج. عمت البشرى وانتعشت أحلام الوفر والرغد. خيوط الماء الشفافة تناسجت مع خيوط الشمس في سبائك باهرة. وقال الكبار على مسامع الصغار : ضاق الكنز بما رحب، وها هم السدنة يلقون بما فاض عن سعته مدرارا.فياله من كنز ! ويالها من مغارة بلا قرار!

سر الكنز وحارسته "حنة مسعودة"يغري بالمغامرة ..إغراء لا تصمد أمامه حتى غريزة الأمومة !)

* * *

مـن باطن أعماق الهوة
يطفو طفلٌ قلِقٌ ناعمْ
ويَلوذ بأحضاني
ويبَصّرني بمتاهات الأنساب
وغزارة آثار الأقدام
على صخر الجبل الشاهد
ويقول :
أتُنْكرني !وأنا أنتَ؟
أبهذا اللمح الخاطف تنساني؟
وتسميه العمرَ!
أضيءِ النفقَ المغمورَ
بأكوام الحاضر،
لملِمْ شذراتِ العمرِ
وأشلاءَ المرآة

فلَعلَّ الشّعْر يُضيء متاهاتِ الهوة
وهنالك تلقاني.

1

صَخبٌ ما
في جوف الجبل الشاهدْ
صخب لا تُدركه الأبصارْ
ولكن الأسماع تؤول همهمته
وتُدَوّن في ذاكرة اليوم :
ماء ثائرْ
أو صخر مصهور فائرْ
أو نهر من تبر ذائب
يسعى منذ الزمن المغمورِ
بأحقاب النسيانِ
إلى ضوءٍ
يأتي من بابٍ خافية في الصخرِ
ودونها سبعة أبوابٍ
لا يفتحها طِلّسْم
أو يكشفها ساحرٌ،
والمفتاح السابع في أحشاء الحوتِ
فإذا جاء الأمرُ بَياتا
وتلاقى ناموسُ الأحداثِ
وناقوسُ الأفعالْ
سيصادفها طفل شاردٌ
ويكلمه حرف الطّلسْمْ
ويعلمه سرَّ المفتاح .

2

ينشقُّ الصخرُ

وينهمر الشلالْ

يُلقي بسبائكه

في مَخبر كيمياء الشمس

ينحلُّ رذاذه أطيافا

وملاعبَ قوس قزحْ.

3

أصوات دانية العهدِ

بملائكة المهدِ

تعلو الأصداءَ

وأسرابَ الخطافِ

على أمل صاخبْ :

"ياغابات الدفلى

يافاتنة الشلالْ

من أين نراود سادنةَ الكنزِ

ونشق غبارَ الماءْ

ونمزق أستار الشلالْ

ونحط على باب الكهف.؟

ياطحلب أحجار الوادي

يارسم الحناء الباقي

في كف عروس النهرْ ،

أرنا من أين تراقبنا

امرأةُ الكنزِ

ومتى تغفو عيناها معاً
فنُطِلّ ،ولو من شِق مواربة الباب ،
ونرى من فُرجتها
قبسا مما يَحكي الأغرابُ
عن التبر الأصفرْ
والياقوت الأحمرْ
والذهب الذاهب بالأبصارْ
ونباهي في السمر الآتي
بغرائب لا يطأ الأيقاظُ أقاليمها
وتضيق بها الأحلامْ.

4

تأوي القطعانُ إلى حضن الدفلى
والريحانِ الشافي
يأوي العصفورُ إلى دوْح الكرَزِ
يأوي القمر المعشوقُ
إلى ظل الجبلِ
والطفلُ إلى حضن آمنْ
يصغي لحكايات الكهف المسحور
والكلماتِ المنسابة من صوت حالمْ
يتلقفها قرْطا في أذن الأم
وخاتمَ ياقوت نادرْ
ويسافر عبر أقاليم الزمن المرفوع
على الوهج الخاطفْ
ويوَشح بالفرح الصافي
صدرا لا زال يغالب تنهيدة

ويغُص بموال حائرْ
بين الزغرودة والندبة :
"نَمْ ياولدي
واركبْ أرجوحةَ أحلامك،
الوهج الخاطفُ
شيطان راقصْ
والحارسة الشمطاء مخادعةٌ
ترمي في النهر سلالَ لآلئها
كي يركبها طفلٌ سادرْ
ويحيط به دوار النهر،

نَم ياولدي الآنَ
واحلمْ بقميص حريرْ
وحذاءِ ذهبْ
وعساني غدا
أتسلل قبل الفجر
إلى خِدْر الشمسِ
وأباغتها في غفوة ما قبل السَّحَرِ
فألَمْلم من طرز القفطانِ
وحاشية المرآة
خيطَ الذهب الساحرْ
وأحوك لك الجلبابَ
وطاقية الإخفاءْ
كي تدخل باب الكهف
يُطوّ قلكَ الخاتمْ
وتلين لك الأختامْ
فترى وجها أعمى

في مرآة بكماء
لا تعكس من آثار الوجه
سوى شرَر العينيْن.

5

بيضٌ وكواعبُ أترابٌ
يمشين بإيقاع البِلَّور
على الحجر العاري
مثنى مثنى
يصعدن إلى حلْم الصلحاءْ
وسماء من سحُب اللقْلاق تُظللهن
والصوت المرتعش الواهن
يحكي بالندبة أخبارَ البشرى
يبكي،يضحك
لا فرْقَ
فإن النعي هو البشرى
صوْت فرْدٌ
لكنه منفرد جامعْ
يأتي من صَلب سلالات الأحزان
ويُعدّد من كل الأشياء ثلاثيّها
ومن الألوان
الأسودَ والأبيضْ
ومن الأنغام
نزيف الروح :

"ياساكنة الكهف
يامرأة الإبريز الخالص
صُبّي في مصهر رأس الماءِ
سبائك من ذهب ذائب
وتناسيْ بابَ الكهف مواربةً
ليصادفها طفلٌ
زهري الوجهِ
ونجميُ الطالعْ
مولود في برج مائلْ
في عام وتْر
وعلى كفيه علاماتٌ
من خط منقرضٍ
باقٍ في الرقية والطّلّسم
وخرائطِ مفتاح الكنزِ
ونقوشٍ في جسد الخاتم"

6

يومٌ ينضاف إلى نهْر الأيام
يمشي الهَوَيْنى
ويجتنب الحاضر ،
يمضي نحو الشفق الدامي
ويتوق إلى ليل النسيان.

شمس أخرى
رجعت من مغربها
لم يحجبها ليل قلِقٌ فاتن

غابت عنه الأحياءُ
سوى حوتٍ هائلْ
في بحرٍ لُجّيٍّ صامت.
حوت شفافْ
يبدو من جوفه مفتاحُه
وعلى وجهه وشمٌ
من طلّسم الخاتمْ
وحروف من لغة بكماءْ
من إبداع الحالمْ.

7

ليل أعلى من سقف البيتِ
ومن رأس الشلالِ
ومن حلم الحالمْ،
يحتاج الليل إلى عين لتراهُ
كما يحتاج الصمتُ إلى صوت
ليشاركه نجواه
كما تحتاج الريح
إلى سرب الطيرِ
ليرافقها من صقع الموتِ
إلى وطن الغرباءِ
كما يحتاج الهمسُ إلى أذنٍ
تتحسس أنفاسَه.

8

ها هي طريق النهر ممهَدةٌ
قم ياولدي
والبسْ جلباب العيد وطاقية الإخفاءْ
واطرقْ باب الكهف ثلاثاً
فإذا انشق الصخرُ
ألقِ القدمَ اليسرى
واملأ كفيك ثلاثةَ أمداد تبراً
واغمض عينيك عن الرابعْ
أحكِمْ من خلفك
أختام الأبوابْ

....

لكن عيونا جاذبة صفراء
سالت من فوهة الكهف المسحور،
كانت أقوى من حبل سُرِّيّ واهن
كان الوهج الأصفر
أصفى من بوصلة الحاضن! :
ويلك!
ما كنتُ أرى كفيْك بهذا الضيق
أعِدِ الكَرَّةَ
واملأ بالتبر ثلاثةَ أمداد أخرى
لتكافئ حفنات الرجل الراشدْ

9

تمتد أنابيب الشلال
أفعى ملساءَ وباردةً

تسعى تحت غطاء الولد النائمْ
يشكو ويئنُّ
ولكن اللغة البكماء حَرون
تتلاشى صيحات الحالم
وتكبل رجليه الأوحالْ.
صعدتْ من أغوار الحلم البائس
ضوضاءٌ عاصفةٌ
وصراخ مخنوق يائسْ:
أمّااه! ... أعلى صوتا
من كل رحيِّ الماءْ.

10

صعد المحبوب إلى جبل النورِ
ورأى من فوقه مقبرةً
وملائكةً
يحْنون على قبر مفتوح
ويقيسون الأبعادَ
على جسد قادم.
يستوقف سوسنةً
في منقرها طينٌ فاترْ
ويسائلها:
- من صاحب هذا القبر؟
- ولدٌ يأتي من تلقاء النهر
ويعود إلى شفق التكوين
ويَعد أصابع أيامه
فيضاعفها إن شاءَ

أو يبترها إن شاء
أو يغرسها في الأرض فسائلَ أشعارٍ
تحيى بعد فناء الأسماءْ
وتسافر في التذكار
وفي النسيانْ
وتعود بسبعة أرواحٍ
وبسبعة أجساد أخرى .
ـ أعطُوني ، إذن ،زمناً
يكفيني لتجفيف الدمع
ولتخفيف الأوجاع عن الثكلى،
سأعود بفانوس أبيض
وحَصاة من هرَم الأشعار.

11

تبكي الندبةُ ظلاً
ما انفكَّ يجاور فاقدتَه
ويحاورها،
تبكي موتى مغبونينَ،
وبلا جدوى تبكي طفلا
يأتي صوته من قعر غدير.

يونيو 2002

4ـ لمن الصوت الآن ؟

مـن يرسـل الألـحـان؟

مَن يرسل الألحان الآنَ
مِن هناك،من بعيد؟
من يُدمن الغناء في الظلام
حين تشحب الأصواتُ وتَبيد؟
من ذا الذي يخاطب الصباحَ
من غشاوة المساء
بلحن خالص أجشّ
لكنه نافذٌ
شجيٌّ وبهيج؟

أيأتي هذا الصوتُ
من هوامش المدينة؟
أم من بستان ذابل مهجور؟
أم من خراب الحائط الوهميّ
في جنين؟
أم من سخرية النعوش بالرّدى
وبالزمان الفاشل المَهين؟

أصغي للصوت دامعا مطأطئاً
والصوت لا يَحفل بي
يمر فوقي
كالنعوش طائرا
بلا فجيعة ولا دموع،

يمر غيرَ آبهٍ
بكرسيِّ الإفتاءِ
ومنابرِ الأصداءِ
وديباجة الخطاب.

والآن يأتي الصوتُ من قريب
ينبع من غياهب السريرة
فأحمد السُّرى في الفجرِ
غيرَ متعجلٍ
لرؤية العصفورِ
حين يختفي في الظلِّ
ويفتتح النشيدْ.

ماي 2002

شيئا فشيئا

شيئاً فشيئا تشحُب الأشجارُ
وتَفِر من ظلالها
تأوي إلى خلفية النهار.

شيئا فشيئا
ينسحب الضوءُ
من سُوَيْحة حميمة
وتَعمَى عن ألوانه الأبصار
فلا ترى
سوى أشياء عرْش الواجهات.

شيئا فشيئا
ينفذ الهواءُ من أنسجة الرئاتْ
ومن شعاب الريح
وتختنق النوافذْ.

شيئا فشيئا
تذهل الفصولُ عن موعدها
والأرضُ عن بذورها
وتُنبِت الألقابَ وأجنّةَ الفضائحْ.
شيئا فشيئا

ينغرس المبضعُ الوحشيّ
ويشق وجهَ الكوكب شرائحْ.

شيئا فشيئا
تخفت الأصواتْ
وتنبهم الأقلامْ
ويرجع القولُ إلى حبال الضغط العالي
وسَقَطِ المِداد
وجَهيزةِ الأضواءْ
وتنزوي بدائعُ البدائهْ.

وفجأةً
تأتي عشواءُ الريح بالغبار
وتَرفع الدّمى
على أعمدة الجرائد،
ومِن مَخْبئها في الكهفِ
تَخرج العناكبْ
وتَكسب الجناحَ
ومناقرَ الأقلام
وتحجب السماءَ بمدادها الرمادي
... ...
أفي الكلام ـ بعدُ ـ
إلا فسحة الدواخلْ
ونقرة عَجْلى
على ربابة التناسي؟!

2003/2/25

غَفوة

كلَّ مساء يلتقينَ
حول عين الدائرة
ويَدخلن الكلام من أبوابه السبعين
يَنْسيْن ، ولو صدفةً ،
همومَ هذا اليومِ
وانتظارَ اليوم اللاحق
يحاولن الخروجَ منْ يومهن الرتيب
ويبدأن التحليقَ
من زخارف المنديل،
ولكن الأقدام والأحلام
مغروسةٌ في الطين
حتى بطْنِ الركبتينْ.

في غفوةٍ
نما ، شيئا فشيئا ،حَوْلهنَّ
من مَنابتِ الأقدامِ
حتى منتهى الأرداف ،
لِحاءٌ متخشبٌ وناعم .

وفجاةً
أثارتْ زقزقاتُ الطير
شهوةَ المساء
وطار سربُ اليوم عن أغصانه

وانتبهتْ إحداهنّ
إلى حلول ساعة التجميل
وسرّحتْ خصلاتِ
من بنات المجد الغابرْ .

لكنها رأتْ ظلا
يهوي على المنديل
خفيفا ،
مثلما تهوي أوراقٌ من شجرة الخريف .

الكلامُ الحَيُّ

في جهةٍ
أو بُعدٍ ما
كَنزٌ من الأشياءِ
يستغني عن الأسماء
إن شئتَ اطلبْهُ
في الضوء المرشوش في الصحراء
أو في المِلح المبثوث في الدموع والبحار
أو في ظلام الحُجرة المهجورةِ
التي خلتْ من المعاجمِ
ومن غبار الكلمات .

متى أصغيتَ
واستمرأتَ
واكتفيتَ
تَسمع الهواتف :
إنما نحن فتنةٌ
فلا تقفْ على بياض السطرِ
بين الضوء والعبارة
وتحجب الطريقَ بالظلال
فإنَّ ما تطلبه أمامك
مِن مشْي فوق الماء

وصعودٍ في الهواء

إلى طيِّ المكان والزمان

بسحر الكلمات اللّيِنات

بلا لِحامٍ

غير صبِّ الروح في صُهارة الكلام

وليس في الصدى الذي يموت كل يوم.

ما تُظهره يُخْفيك

ما تُظهره يُخفيك
وما تُخفي في أوراق الخوف البكماء،
تسري به أصواتٌ في غير مسافات الأبعاد
وتبثه في لغة لا حَرفية
وحوارات أخرى لا يضبطها قلم
أو تحملها أصداء
أو يسجنها حبرٌ أصفر
في خوف الكلمات الصفراء.
تُـخفي بالحبر الشاحب عنوانك
عَلَّ الضوء الآتي
من بوصلة العارف
يَـزْوَرُّ عن الزورق
وعن الصخب الهامس
بين الأمواج وإيقاع المجداف.

هبْ إنك بين دواب البحر
فرد منها تُسقى مما تُسقى من أملاحه
تأكل مما تأكل من مرجانه
تسمع من حيتانه نجوى سرّيانية الصمت
فإذا الأمواج تطوّق أحلامك
لكنك لا تدري
من أين تمد الحبلَ إلى الحلْم الغامض
والصمتِ الكامن

في الظل المرجاني

في أعماق البحر.

فإذا التقت الأمواج على يقظة حلمك

تهوي بك نحو القعر

بلا صخرة جذبٍ ، زمنا

تطفو بَعده فوق الزبد المائع

ثم ترميك الأمواج على لوحٍ

ورقيم مُسارَرَةٍ عليا

تُدعى لغة الطير الصافات

هي عنوان نجاتك

ثم تنطلق الأوراد مرتّلةً

وموقعة بتلاوة فاتحة الكائن

وشعائر قدسية الباطن.

ما أسهل أن تَنسى

لغة الطير الصافات

وتمحوها

ما بين ضبابية المنطوق

وخَطيّة المكتوب

وبرودةِ تمثال جامد

لا تقلقه اليقظةُ

أو يغشاه النوم الساحر.

ما أصعب أن تصحو

عبر مجاز الكرَز النائم

في أحضان البركانِ

ولا تُمسي إلا ظلا في غاباته

أو كلمات تذوي
في أوراق الخوف الصفراء.

ما أجمل أن تبدي الأوراقْ سرائرها
والحبرُ حقائق ألوانه
ويرى الساري فانوس الربان العارف.

5ـ خيمة البياض الدافئ

أنَسٌ

1

أنَسٌ ..أنس..أنسٌ ...
ويرددها العصفورُ معي
وتـلحّنها الأصداء.

أنَسٌ..أنس..أنسٌ
تتهامسها الأغصانُ
فـماً لِفمٍ
وتُـلقنها نغـما نغماً
لجداول من صخب الأطفال
وتـطوف بها أفقَ البستان :
هذا عُش العصفور
وهذه أزهار اللوز
بيضاء وصافيةٌ
كخصال "رياض" .

أنَس..أنس ..أنسٌ
يارسالةَ حُبٍّ
موقعةً بيد اللهِ
لا زال النورُ على الكلماتِ
ولم تمسَس كلماتِها نارٌ .

أنَس ..أنسٌ..أنسٌ
ياسعادة جَـدٌ
طـوى جُـلَّ أوراقـه
وهو الآن يَدخل تاريخَه الغبَـشيَ
فهل يتداركُـه أنسٌ
ويلوّن باقي صحائفـهِ
ببدائعِ ما في عُلبة ألوانه.

2

في الحُـلْم كما في اليقظـةِ
يأتيني أنسٌ
فَـرِحاً بـالبحر
وبـالضوء الغامرْ
وبصحبته طـفلٌ قمرٌ
يعلو كلَّ الآفـاق
ويطـوقها بدوائر هالتِه الزهراء
يُـفضي الولدُ الفضيُ إلى أنَـسٍ
بـالسر الكامـن في المشكاة
ويُعلمه كـلَّ الأسمـاء
فيخَـصِّبُها بنباهتـه أنسٌ
ويشير بكل أصابعه :
هذا قمر في لحظـة ميلاده.

يتماهى في النور الطفلان
والهالة ميدانٌ شاسعْ
يَأوي القمرانِ
إلى حضن اللغة الأولى

تدنو اللثغةُ من خيط الضوء

ويمتزجانْ

ويَصيغان الأسماءَ وأصواتَ الأشياء

من نبرة معدنها الآني

ومن النغم الخالص

في إيقاع الأمواج وتطريب الرياح،

والبحرُ يَمدهما باللون

وبالصخب الدائمْ .

يوحي القمرُ الفضيُّ بآيته

ويطير بها الضوء العارفُ :

"أعطوا أنَساً

قبساً منّي

وإليّ بموسيقى الاسم الراقصْ

فكلانا من ضوء صافٍ

وكلانا من نغم خالص"

وميضٌ..ثم سبْع ثُريات

(إلى ابنتي ، فردوس)

طوّفتُ ، يافردَوسُ ،
في المدائن المسحورة
وفي مروج الجنّ
ومَفاوز السرابْ،
وغُصتُ في منابت المرجانْ
لعلني أرى اللؤلؤَ الحيَّ في أغصانه
وعدتُ بعد سفر غريبْ
بقبَس من نار مقدسة قديمة
تلك التي تذيب قلب الصخر
وتُبلْور المصائر.
وها أنا أستَلّ من شعاعها خيطا
ومن لهيبها خلاصةَ المعادنْ
وأصنع الحُليّ والجواهرْ
لعُمركِ الفجائي المثير.

دخلتُ كهف الذات
المعَطّلةِ العقيمة
وكان الليل فيها يستضيء بظلامه
وخضتُ بحرّ الضوء
مستعينا بأمواجه
إلى حيث الأسماءُ

لا تقابل الأشياءْ
وحيث يتماهى عينُ الضوء بمصباحه.

خرجتُ ،ذات يوم
من دوامة التساؤل
ومن متاه البحث
عمَّن أوجد السؤال،
إلى انسياب الماءِ
وسلاسة السواقي
وفرَحِ البستان
وعفوية التراب .

رجعتُ عبْر المَرْمَر الشفيفِ
من خِلالك
وعبر المعدنِ
الذي تُضفي عليه النار والمطارق
صفاءَ وهْج الشفقِ
الصباحيِ البهيج،
إلى طريق النهر
وبداهة المسير.

وها أنا أعود خالي القلب واليدين
فلم أجد في بحرٍ أو في غابةٍ أو نارْ
لؤلؤةً تملأ القلب والعينينِ
ملْءَ هذا الفيض من بهائك.

يَعرف الضوءَ
أنه الفضاء والجناح والطيور،

يعرف الطيرُ
أن كل أفق يُفضي إلى آفاق
وأن الريح والجناح يخفقانِ
حيثما يكون نبض الزمن الجديد،
وتَعرفين
أنكِ الضوء الذي ينفُـذ من ظلالي
وأنك الخَفْـقُ الذي ينداح في أمواجي
إلى حدود الشاطئ المُحا ل
وأنك الهمسُ
الذي تبثه الرياحْ
مثل الخبر السعيد
إلى شغاف القلب والسجايا والخبايا...

أنت الفريدة
ولكني أبو البنات السَّبْع فيك
أراكِ سبْعَ حوريا ت
في ألوان طيفٍ متعدد فريدْ
وفي الأزمان كلها
من قبْل أن ينتفض النسيانْ
ويَبتدع التناسي...

2003_6_ 19

ريـــم *

سواء تكلمتِ ،ياطفلتي ، أو أشرتِ
بأصبُعكِ المَرمَري
فإنَّ حروف المعاجم تَغمُرني بالمعاني
وتَنْزل بين يديّ السماءُ
بمائدة الَمنّ ،
ياريمُ
طوعَ إشارة أصبعك المرمري
تَفور المنابعُ من حيث لا تتوقعُها الشجرة
إذ يفاجئها الاخْضرارُ
وتلمع أوراقُها بدموع السعادةِ
في فجر يوم جديد .

تُشيرينَ أو تَرسمين على شفتيكِ
ابتسامةَ مَكْر بريءٍ
فتخضَرُّ أبصارُنا
والهواءُ الذي حَوْلنا
ونرى من فضاء النوافذ
وجهَ "جوكاندا" العجيب
يُجدد بسمتَه
بتجدد عينِ المُشاهد .

تُغنينَ أو تَلثغين
فترفعني موجةُ الانتشاءِ

إلى أوج قمتها الذهبيةِ
حيث أكون خلاصةَ صمتٍ
وأنت خلاصة لحنٍ،
تشيرين بالخَيْزُران
إلى عندليب الطفولة
في دوحة السنديان
فيلتحم الموج والريح واللحن
والشجر المنتشي بنشيد الخصوبة
في مهرجان فريد .

2004/9/20

---

* حفيدة الشاعر

6- غربة المقيم العابر

طائــر

طائر يَلقط الدقائقَ أوهاماً
ويَمضي مصدقا أوهامَـه
كمْ ثوان فرتْ أمامهْ
لكنه ينسى ويستعير زمانَه.

بقليل مما تبقى لديه
من جناح يواصل التحليقَ
مثل نسر يغالب الأنواءَ
مثل ضِغْث يسوّد الأوراقَ
يحسب الحاضرَ المموّهَ
أدنى لِغد في يومية الأوقاتِ

هو يوم يغور مثل الذي قبله،
أمسِ، مضى بسر الزمانِ
ثم يأتي الجديد من مشرق الشمس
ويمضي توّاً لكسب الرهانِ
فإذا أخفق الرهانُ
وهبّت موجةُ الريح
من غبار الجفافِ
يحتمي بالجدار من صخب الصمتِ
ويصغي لساحر الكلماتِ
فتجيء الرياحُ من صُحف أولى
بأصل الزمان والأوقاتِ .

شاعرُ الفطرة الوحيدُ سيبقى
وسيأتي إليه من كل جيلٍ ،
شاعر واحدٌ
يموت ويحيى
بين كل الأجيال باسم جديدِ
لست أدري
إن كان هذا هو البحرُ
الذي قيل لي
أو هو السرابُ
أو أنا من جنْس المصابين مثلي
بعمى البوصلات والأبعادِ .

ليتَ اليقظةَ حلمٌ

شخص آخر
لا أعرفهُ
لكنه يحتل مكاني حينا
ويشاركني ذاتي حينا
يمحو ما أكتبه ويُكسر أقلامي
بل يُلغيني حينا
فألامسُ أطرافي فزعا
أتحسس ثيابي
فإذا بي لم أبرح هذا الحيّزَ بَعدُ
ومعا لا يحملنا حيز ،
لكن الآخر يحتل مكاني،
هل يَحملنا نفس الحاضر ؟

ليت الحوَر الأبيض حقا أبيض
لأبيّض أوهامي ،
ليت البحرَ الأزرق حقا أزرق
لأصدّق واقعتي وأجسّم أحلامي،
ليت الماءَ المتسارع في الجدول
ماءٌ
لأطهر أشعاري ،
ليت النغمَ المتوهج والخَفَر الساهي
صبحٌ
لأحلّق في معراج الصمت،

ليت اليقظةَ حلمٌ
لأرى أعجوبةَ هذا العالمِ
في عين الآخر
وأرى الحاضر يحمل يومي
ويعايشني حقا .

غريب في المدينة

يَغيب اللونُ تحت ظلال جِلْدِ الرمش
يُرخي الليل ذيلَ غموضهِ
ويُفاقم الوحشة
ويغمر واجهاتِ مدينة الأشباحِ
لونٌ شاحبٌ
ويعود أصلُ الضوء نحو النجمة الأولى.

عيون الناس بكماء
وأفواه البيوت كليلة عمياءُ
تنسل كلُّ أشباح المدينة من دروبٍ
تلتوي تحت السقوف السبعة الدنيا
وبين متاهة الجدران من رمْزٍ إلى رمزٍ
بلا زمنٍ ولا عِلم بما لا ينبغي
إلا لأهل الرمز والتأويل.

وتهمس بعضُ نافذةٍ
بشيطان الغواية واللذات البعيدة
ويهبط من قرار الوهمِ
لونٌ واحد حاسمْ
يَحد مسافةَ الرؤيا
فلا أفق ولا وجه جديدُ.

غريب في المدينةِ
بين حبات من الرمل المسخَّرِ

بين زاوية وأخرى

في زجاجة ساعة الرمل الرتيبة

ولا يجدي حضور أو غياب

لا تفيد الخيبة القصوى

فضاءً فارغا وصدى

يردد آخر الكلمات.

ستهبط لاعتقال الوقتِ

لكن لن ترى أثراً لظلك

لن ترى ظلا يوازيهِ.

سيمتد الخراب المحضُ

حتى يحتمي المنسيُ بالمجهول

من رعب المدينة

وتُمْعِن في

غيابك كي يعود الوعيُ

للوقت المعلق فوق أسوار قديمة

لعلك تبتغي وقتا

بلا شمس ولا قمر

ولا رمل ولا ساعة.

أمامك رحلة أخرى طويلة

وإبحار إلى وطن يهدد بالرجوع إليكَ

عبر ثقوب ذاكرة مشوبة

وفوق سفينة عشواء

تخبط بِرْكةَ الزيت الثقيلِ

أمامك سيل أسئلة

وأنت تسير منتظرا ومرتابا

كأنك لن تكون هنا

إذا ما أدرك الغرقُ السفينة

ولا يجدي التذكر

كلما لمستْ سفينتُك الغريقةُ

أسقفَ المدن الغريقة

فليس هناك إلا الوحْل والحمْأة

لعل سفينة أخرى

تغامر بين خط الماء والموتِ

وتبحر في مياه الذاهبين إلى لقاء زمانهم

في الضفة الأخرى

وراء بحيرة الزيتِ الثقيلِ.

أمْطري ياسماء

ياعواصف سبْع ليالٍ مقدرةٍ
بمواقتها
أبدلي ،إنْ حللتِ بنا،فجأةً
بسكون الرياح
بوادرَ عاصفةٍ صامتة.

أمطرينا إلى مطلع الفجر
كي يستردَّ الصباحُ طراوتَهُ
والبصيرةُ حدتَها
ونُحَصِّل ما في الصدور
وما في السرائر من ألم وشكوك.

أمطري لتطهر جلدَ العواصمِ
من جربٍ مزمنٍ
ومواسمَها من ذهان التهافت
في حلْبة خاسرة.

أمطري لتبَلْسم جرحَ الخديعة
في أعين النازحينَ
بما حملوا من بقايا ملامحهم
وبما شربوا من غبارٍ
وهم عطشون إلى رعشة الانتشاء
برائحة الأرض

حين يؤنسها مطرٌ
ويُمَسِّد خصْلاتِها
ويُجلي مرايا السماء لها
لترى وجهها السرمدي الجميل .
أمطرينا فقد نرتوي قطرة قطرةً
ونشم التراب البليلَ
ونفتح كل نوافذنا للنهار الجديد.

اغسلي الأرض كي نتبين حاضرَها
ونرى أثَرَ الذكريات التي لم نعشها
ولمَّا نزلْ في انتظار تواريخها،

ربما نقرأ الوقت في صخرة صافية.

حَصيلة النسيان

شَردتَ ذات حلمٍ
عن سوائع الزمان المتهالكِ
الذي يموت في حب الأشياءْ ،
إلى زمان الغابة الكونية .
أوغلتُ في تخومها ،
وشَّيْتُ بأزهارها أوقاتي
ويوميتي الجديدة
يَصحبني الزمانُ مثل الوعِل الأليف
يمشي الهُوينى
لكني أعُد ألف خطوة
في حينِ يخطو الوعِل الوئيد
وميضَ وقتٍ
من زمان الغابة الكونية.

أفقتُ
عند نقطة انفصال الزمنيْنْ
وكان الوقت ما يزال ساكنا
رهينَ يوميته القديمة
غامرتُ بالوقوف فوق الحافة الرهيبة
وقتَ انشقاق البرق عن شروخ في المرآة
لعلني أرى خيوط ذلك الضوء الذي
يمتد جسراً بين اللامحدود
ونهاية الأسرار .

أضعتُ خيطَ البرقِ
وشظيةَ المرآة
وعدتُ من الحلْم
بحصيلة النسيان .

يأتي الشعاعُ
في لون حماميّ أليفْ
يأتي على عذوبة الشفاه
والحوار المتواطئ
في بهو متعاطف حميمْ
تنفتح الأبوابُ
نحو داخل الأرواح
وتسْبح الوعودُ
فوق الزمن المباح،
لعلها إحدى بنات الشِعر
تلك اللحظة الفريدة
إذ يقتضي الوجودُ
فعلَ شيء من طبيعة الحياة :
بطولة
أو لمسة فقطْ
أو كلمةٌ كالشمسِ
في صباح يوم
دافئ ندي .

ماي 2004

7- صيْرورات تُسمي نفسَها

1 ـ مطر

يمحو المطرُ راسبَ الهواجسْ
يبلل الخيالَ ويُبَلسِم الجراحْ
ولا تفي خزائنُ الذكرى بما يراكم المطرْ :

مِظلة ورأسٌ مرتبكة ،مطرْ
ووجه امرأةٍ بليلٌ مشرقٌ ،مطرْ
وبِرْكة عَكِرة من زمن الطفولة، مطرْ.

المطر قديم وشريد كطيوره
في أي عش سيحُط الطائرُ الشريد
في أي بحر سيصب المطر الشريد
وأيِّ رحِم يَختار طمْيُه الخصيب
لربما تكون الروح شيئاً
مثلَ رعشة التراب في المطر .

إذا جفتْ منابعُ الذكرى
وغام خيط المطرِ
الذي يمتد خطا واصلا
بين الوقائع الصغرى
في يوميات طحلبِ
وبين هذا القلقِ
الذي يخاف العاصفة
ويخشى الموجَ وانفتاحَ الأشرعة،..
إذا جفتْ منابعُ السحابة
لن يَشبع الترابُ من أقدامنا
ولن نرى السماء بين ماء ودخان.

2ـ مهلة

حسبتَ أن عتْمة الضباب لن تَحيد
وصخرةَ الجليد لن تَبيد
حتى أفاق غصنُ اللوز
وارتدى البياضَ مستهينا بحسابك
واسترجعتْ مياهُ النهر وجهَها
أمام شمس الزمن الجديد ،
لكنَّ ظِلَّ وصمة سوداء في السماء
تُذكّر الطيورَ والزهور
بمهلة تليها مرةً أخرى عواصفُ الجليد
ولكن الطيور والزهور
تُغني لإله الصمتِ
ـ المختفي في غيمة الشتاءْ ـ
بريئةً سعيدة ،
وترفض الحُسبانَ والرجحان

3ـ عشْق

أعشَق النورسَ الذي يعلو
حتى تغيب من سمائه الظلال
ويعلو ..ثم يعلو
حتى تختفي المشاهدْ
ولا يبقى سوى الشعاعِ الخالص
وهكذا يأنس بحرا آخر
ونارا لُجينيةً

ورملا زئبقياً
في دواخل التناهي .

أعشق الوردة التي تثْبتَ في مكانها
إلى انتفاء حالة التوازي
وهكذا تحيى في كل ماءْ
وتُلقي بألوانها على كل الشفاه.

4 ـ عشقٌ آخر

عشقتُ الكلمات الملتبسةَ الملامح
أحسستُ بأنفاسها
قريبة من حالة الصمتِ
وبرمادها يذوب في لساني
تبعتُها بطيئا ومرتبكا
حتى اختفتْ
كسِرْب طيْر خاطف .
سيمضي هذا الألمْ
الذي يأتي من وعي
بزمانٍ ما وراء الكلمات
وبمكان يجري فيه
نهرُ وعْي آخر .

5ـ الأيام والطيور

مثلَ الطيور
تذهب الأيامُ وتعودْ

على طريقٍ ضوئيٍ جريحْ
مرسوم بغياهب البحرِ
وبمجاهل الجليدْ
وبعطور النُّسْغِ
وروائح الطحالبْ .

هناك نبْع خفي مسحور
وهاهنا أنهار سندسيةٌ
مجهولةُ المنابع
ومسجدٌ غريب ومئذنة خضراء
تُعطرُ الرياحَ بأصواتها القديمة .

في أي حبٍّ
أو سماءٍ
أو سعادةٍ عليا
تشترك الأيام والطيور ؟
كلاهما يَمُر ويغيب
وخَلْفَهُ ذيلٌ من الأحزانِ
والأحلام والذهول .

6 ـ التِباس

ليس النهرُ الذي جرى بالأمسِ
هو ما أراه الآن
والعينُ ليْستْ هي عين الماء
ولا اليد التي تمتد الآن لالتقاط القُطيْرات
هي التي اكتفتْ بالأمس

وارتوت مَـرّاتْ

ولا الأرض العطشى التي نسيَتْها السماء

هي التي ربَتْ واهتـزت أمسِ

من ترادف الزخات ،

ياحبذا مياهَ البحر والأنهار

هي عين الماء !

لكنها تجري

وهي ذاتها وغيرها في الآن

هن صبايا فاتناتٌ

مشرقاتٌ في الضحى

وجنيات ماءٍ ساحراتٌ في المساءْ

يَمْحقـن الذكريات

بضلالة التناسي.

أكتوبر 2004

كَلمتان

1 ـ الكلمة الأولى

تخط بجوار الحلْم خَفيةً
تدق بابَ الصمتِ
فأحِس بلهيبها الأليف
يفاجئ النسيانَ
ويداهم الكوامن
وراء ما يقال
ونهاية المَقال ،
ينهدُّ الكونُ حولْها منهوبا
كمحارب كسير
أمام جيش جشع بلا قضية ولا مصير
تقوم وحدها من بين عالم الخرائب
وتسْكن الأشياءَ والعناصرَ الأولى
وتمتماتِ الملهمين.

أيتها الحقيقة الوحيدةُ
التي ترى ما لا تراه الشمسُ
ويجهله الضمير
أعفيني من سؤالك الملغوز
وجوابك المرموز،
أيتها العطشي التي لا ترتوي

إلا بالعطش الذي يلتهم الشفاه
لا تمكثي طويلا بجوار هذياني.

أيتها الروح التي لا يحتويها جسدٌ
ولكني أجدها تفور من كياني
امنحيني سرَّ جدول الحروفِ
كي أخاطب الأشياء بأسمائها الموقوفة
أنتِ التي تدْرين ما سرّ الأسماء كلها
من قبل أن تغمرها الأشكال والألوانُ
والملامح المألوفة
أنت التي تحْيين في صمت الأشياء كلها
وفي شظايا حلم العارفين.

2ـ والأخيرة

ستسافر حيث تقيمُ
وتحْمل بين يديكَ
بريقا من الثلج أو مثلهِ
وتباغتُـك الذكريات على كل منعطفٍ
فتقيم هنيهةَ حزْنٍ:
هنا لبِث الظلُّ ردْحا
ومـرَّ مرور السحاب
ولم يره أحدٌ
ربما لم يمرَّ
وكنتَ بِطيْف نهارك منشغلا
وكفى!
ربما كان بعضُ التذكر حزنا مريرا

ولكنَّ بعض التناسي غيابٌ
وما دمت تسمع عزف الرياحِ
وخفق الشراعِ
فأنت تسافر في زمنٍ
كل ما فيه ذاكرةٌ
أو مثيلتها
حيث لا يَستهل النهارُ بفجر
ولا ينتهي بغسق.

ليس بين يديكَ
سوى صخرةٍ شاهدة
حجَبتْها زهورُ الشقائقِ
عن عين قافلة قادمة ،
حين يلتبس الحرفُ
باسم مُؤوّ لهِ
ثم يَذهل عن عين صورتهِ
وتغادرهُ القافلة
حينها سيكون المسافر فارسَ عاصفة
سيّداً في النهاية
حراً
ولكن أكثرهم غافلون.

أكتوبر 2004

يبدأ الآنَ ما قد يتوالى

جسدٌ لا بَشَري
بأديم حائر اللونِ خُرافيٍّ قديمْ
ينشر اللاوقتَ
يُلغي جسدَ الأرض
ويمتد ثقيلا
مثل عملاق بَليل
يتمطى في طريق تَربِ
يأنس خطوَ العابرين
شجريٍّ دائمِ الظل طويل
يحجب الضوء عن الجذعِ
ولكن وُريقات القممْ
تُخرج الآذان من بين جناحيهِ
وتصغي لحوار العشقِ
بين الظل والنور وأصل الاخضرارْ .

في غياب الوقت
كان الضوء يُملي وحْيَهُ
عبْر شعاع سرمديّ لا يغيب
عن توال النبض في الخَلْق الجديد.

زُمَرٌ من حَيَوات تتخطى حمْأة الطينِ
وتعلو بقليل من هواء الروحِ

كي تكسب أسماءَ

وتحظى ببَصيص من وميض

يمنح الخائفَ عينين ووجها

ومزايا من رماد الخَلْق

منها :

قبسٌ يقترف الشِعْرَ ويختار المصير

يبدأ اللحظةَ ما قد يتوالى :

جسدٌ آخر

ها هو استوى الآن على قمة صبحه

توَّج الليلَ بنار

وتوارى في اللهيب

صخرة تَمْرقَ

أو ذيلُ شهاب

ربما مَدَّ جناحيه ملاكٌ

بخطوط ونقوش

لم تصل بعدُ إلى نقطة إثبات حدودٍ

بين تعديل ومَحْو

بين موعود بضوءٍ

ومقيم في فراغ.

فجأةً ينشر منديلَ الشفق

بين أغصان الطريق الشجري

جسداً في سعة الرمل

هلاميَّ الحراشف

يتوارى ثم يبدو كالسراب

ثم لا شيء سوى مَدٍّ وجَزْرٍ
وامتلاءٍ وفراغ
وترابٍ سَلِسٍ يَألَفُ وقْعَ العابرين .
زَهَقَ الوهمُ
فلستُ الآن ألْعوبَةَ ظِلٍّ يتمادى
ثم يمحو عنصرَ الضوء ومعنى الكائنات .
وتلاشتْ حُجبٌ زائفة عن وجه مرآة بصيرة
سقطتْ واحدةً واحدةً
عند حدود الظل والضوء الجديد
وتعالى الصمتُ في همْس وُريْقات القمم :
عند هذا الباب يطوي الظلُّ راياتِ شراعه
ويعود الضوءُ بالفيْء الكثيف
لا تكِلْني أيها الليل لأضواء كريهة
تَلْسع العينَ ولا تفضح دهليز المدينة
لا تدعني مثل ذيل أو صراخ أو ضحية.
حينما يلتزم الصمتَ اللصوص
يُنذر الدهليزُ بالعَوْد المخيف اللانهائي
وأنا شاهد إثبات على ما لا يقال
حُجتي دامغةٌ هي المرايا
ووجوهُ الجسد الطيْفِ
وجلادٌ مُدان
وصباحُ فاترُ الضوء خجول
ثم لا شيء سوى عُشب طُفَيْلي
وأخلاطِ حثالة.

نهْـر أحلاميَ يجري ويغَنّي
أبجديات المنابع
صفُّ أشجار يـُحَيّيه بخضراء المشاعل،
وشراراتُ سنونو
تخطف النجمةَ من شمس قديمة
وتُـحَـلي بسمةَ الماء بأحلام مضيئة.

نهْـر أحلاميَ يجري
عكْـس ما تهوَى الرياح الموسمية.

يناير 2005

صدر للمؤلف

في الشعر

1 ـ آخر أعوام العقم - 1974

2ـ الحلم في زمن الوهم - 1992

3ـ طريق النهر - 1995

4ـ شجر خفي الظل - 1999

5 ـ الأعمال الشعرية الكاملة (في جزأين) ـ وزارة الثقافة ـ 2002

يضم الجزء الثاني منها دواوين لم تصدر من قبل ، هي

1ـ مقام العشاق ـ 1996 ـ97

2ـ أمهات الأسماء ـ 1997

3ـ محبرة الأشياء ـ 1998

4ـ ما ألمحه وأنساه ـ 2000

5ـ متاهات التأويل ـ 2001

6ـ عودة محمد النصري (قصيدة طويلة) ـ 2001

في النقد

1 ـ في الشعر المغربي المعاصر ـ عتبات التجديد
سلسلة شراع (34) 1998

2ـ في الشعر المغربي الحديث ـ سبع خطوات رائدة ـ
منشورات تطاون أسمير 1999

في الترجمة

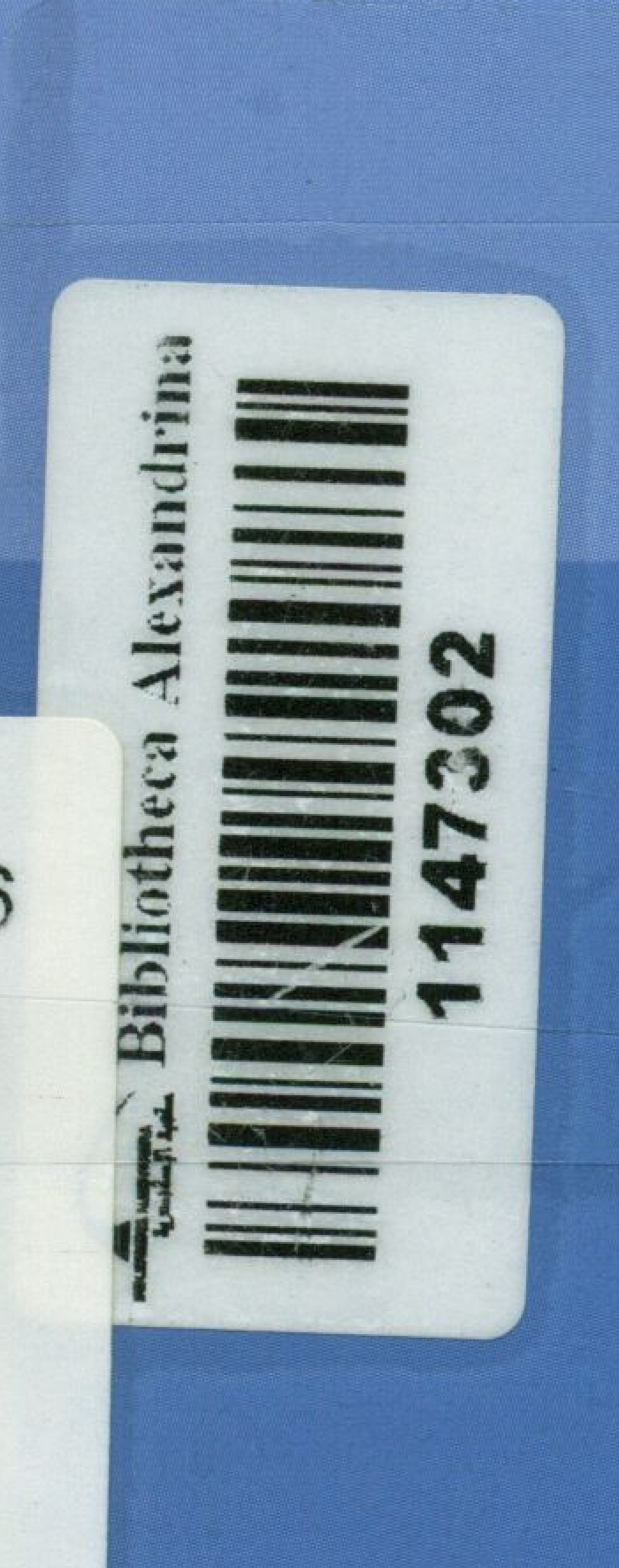
ديوان التماريت Divan del Tamarit - فيديريكو غارسيا لوركا
2005 ـ وزارة الثقافة

الفهرس

5ـ خيمة البياض الدافئ

6ـ غربة المقيم العابر

7ـ صيرورات تسمي نفسها



الثمن : 35 درهما